حبات البرتقال

قصة بقلم أبو المعاطي أبو النجا

متى حدث ذلك ؟ لا أذكر على وجه التحديد ، كل ما أذكره هو ان اليوم كان شديد الحرارة ـ رغم اننا كنا في فصل الربيع ـ ولعل الساعة كانت تشير الى الثانية بعد الظهر ، وان ذلك اليوم قد مضت عليه سنون طويلة دون أن تنجح هذه السنون في محو صورته من نفسي !

ما الذي حدث في ذلك اليوم ؟ لا شيء خطير أو مثير ! ولكنه شيء بقي في الذاكرة يتحدى كثيرا من الاشياء المثيرة التي حدثت بعد ذلك والتي لا أكاد أذكرها ، فما أقل الاشياء التي تبقى في الذاكرة محفورة في الذاكرة ، محتفظة بملامحها ، بكلماتها ، بما فيها من روح المرح أو روح المأساة ، تبقى في الذاكرة تلحّ عليك أن ترويها أو تكتبها ، كأنما ليصبح من حقك بعد ذلك أن تنساها ، أو تلقي على الآخرين مسؤولية ذلك !

* * *

كان الميدان صغيرا رغم انه يفصّ بحركة السيارات والمارة ، يربط بين شارعين مهمين دون أن يحظى بشرطي يراقب مدى احترام الركاب أو المشاة لاشارات المرور وقواعده . ربما لهذا السبب ، وربما لان « العجوز » كان يجهل قواعد السير في مثل هذا الميدان ..! حدث ما حدث في ذلك اليوم ! فجأة ارتفع من قلب الميدان صراخ عجلات تزحف فوق الاسفلت قبل أن تتوقف تماما على بعد خطوة واحدة من العجوز الذي سقط على الارض ، سقط دون أن تلمسه السيارة ... لعله سقط من مفاجأة الصوت الزاحف ، لعله فقد توازنه حين فوجيء بصراخ العجلات ، وقد كان يحمل فوق راسه قفصا مليئا بحبات البرتقال ، لقد تحطم القفص تماما حين ارتطم بالارض وانطلقت منه حبات البرتقال في كل اتجاه تسابق السيارات التي لم تكن قد توقفت بعد !

خرج سائق العربة التي توقفت أمام العجوز يسبّ ويلعن ، ولم يكد يرى الرجل ، حقيقة الرجل العجوز الذي كاد أن يكون ضحيته ، حتى حمله بين يديه الى رقعة الحشيش الاخضر التي تتوسط دائرة الميدان دون ان يكفّ لحظة واحدة عن شتمه . وبعد ان وضعه على الارض راح يتفقد أعضاءه ليطمئن الى انه لم يصب بسوء، ويستشهد بمن تجمع حوله من المارة على ان العجوز لم يخسر سوى قفص البرتقال ، وان عظامه سليمة ، وساعده العجوز نفسه على صحة شهادته حين حاول الوقوف ليبحث بنفسه عن القفص المحطم ، وحبات البرتقال الضائعة !

في هذه اللحظة كنت قد أصبحت واحدا من شهود الحادث عن قرب ، وكنت مع بقية الشهود نتحول فجأة من شهود لحادث وقع فجأة الى مسؤولين عن حادث يوشك أن يقع أمام سمع الجميع وبصرهم . وعبثا كنا نحاول أن نمسك بالعجوز الذي لم يكن يحفل بسلامته بقدر ما كان يفزع لمرأى حبات البرتقال المتناثرة عبر الميدان والتي كانت تظهر وتختفي خلال السيارات التي تمرق فوقها وبينها ، والتي ما كان يمكن أن تتوقف الى ما لا نهاية في وقت يشتد فيه الزحام ، وحيث يمكن ان يؤدي توقفها الى ما هو أخطر من كل ما حدث !

كان سائق السيارة التي سقط أمامها العجوز قد تركه أمانة بين أيدي الشهود ، ليفسح الطريق بعربته أمام سيل العربات المحتجزة وراءه . لم يكن من الممكن ان ينتظر هو الآخر نتيجة الحكم في قضية لا يحكم فيها سوى الشهود ، وتقريبا كان قد حصل منهم على حكم غير منطوق بالبراءة .

وتوارى الحادث الذي وقع ، خلف الحادث الذي يوشك أن يقع . كان العجوز يصرخ ويلطم وجهه ويبكي رزقه الضائع وكأنه لم يربح حياته نفسها منذ لحظات ، ويندفع في جنون نحو الشارع الذي كان يغصّ بحركة السيارات التي لا تكاد تتوقف من هنا حتى تبدأ من هناك !

متى كف العجوز عن محاولاته المجنونة للافلات من الايدي التي تقبض عليه ؟ متى أرخت هذه الايدي قبضتها عنه وكأنما انتابها الملال أو اليأس ؟

جلس العجوز على الارض يرمق الميدان غير مصدق، ووقف الشهود يفعلون الشيء نفسه !

كانت السيارات تواصل سيرها مرة من هنا ، ومرة من هناك ، في بطء هذه المرة ، وكأن سائقيها جميعا يتلقون امرا مجهولا لشرطي مجهول بأن يحترسوا في سيرهم ليتفادوا حبات البرتقال بقدر ما يستطيعون ! كانت حبات البرتقال تظهر بعد مرور السيارات سليمة في نفس مواقعها تؤكد ان الشرطي المجهول لا يزال يصدر أوامره ، ولا يزال نافذ الكلمة !

بدوت للحظات غير مصدق لما اراه ، لولا انني كنت اراه ، اراه يحدث ، في كل لحظة يحدث ، تأتي السيارة مسرعة من بعيد ، ثم تهدىء من سيرها ، يلتقط السائق القصة من أفواه المارة ، ثم يبدأ عبوره الحذر مستعرضا مهارته كسائق ، منفذا اوامر الشرطي المجهول ! كأنما تحول الميدان الصغير الى ميدان لسباق من نوع غريب ، ترسم خطوطه وتحدد معالمه حبات البرتقال ، سباق يفوز فيه من لا يدوس بسيارته برتقالة واحدة ، وكأنما حرص السائقون جميعا على الفوز بهذه الجائزة !

من الذي ينظم السباق ؟ من الذي يراقبه ؟ من الذي يمنح الجائزة ؟ ولمن ؟ كان جميع المارة يقومون بهذه المهمة ! وكان يكفي ان يخطىء سائق سيارة ويتلف برتقالة واحدة حتى يزوم الحشد على جانبي الطريق ويعلن سخريته من السائق الذي لا يعرف كيف يسوق ! كانت روح المرح او اللعب توشك أن تطغى على روح الشفقة او روح المأساة ، ولا اظنني كنت احلم حين خيل لي انني رايت العجوز الذي كان منذ لحظات يصرخ ويلطم وهو يكاد يضحك في شبه بلاهة !!

الى متى استمرت هذه اللعبة ؟ الى متى بقيت هذه الروح تظلل الميدان ؟ تستقبل السيارات القادمة ، تمزج المرح بالحذر ، واللعب بالمسؤولية ، وتجعل من جميع السائقين على اختلاف هوياتهم سائقا واحدا يقود جميع السيارات فوق خط متعرج ليفوز في النهاية باعجاب حشد لم يعد يشعر بوهج الشمس ولا بحبات العرق ولا حتى بالعجوز الذي أصبح مجرد مشاهد للعبة غريبة لا يدري سر نجاحها !!

كانت اللعبة حتى هذه اللحظة خاصة بسائقي السيارات ، وكان المارة يقومون بدور الحكم ، متى ترك المشاة دورهم ليشاركوا في لعبة اخرى بدت وكأنها الفصل الاخير في هذه المسرحية ؟

متى بدأ كل واحد من المارة يجمع حبات البرتقال التي في طريقه ليأتي بها ويضعها في كومة ظلت ترتفع بجوار العجوز الذي كان لا يزال يحدق في كل ما يجري غير مصدق ؟!

كان ذلك حين هدأت حركة السيارات ، وخف الزحام ، وبدأت مجموعة الشهود التي كنت واحدا منها تبدو هي الاخرى وكأن عليها أن تبحث عن دور بعد أن فقدت كل أدوارها . لم تعد هناك قضية ولا محكمون ولا أحكام ولا أحداث تقع عليهم مسؤولية منع حدوثها !

كومة البرتقال لا تزال ترتفع ، والعجوز يتلمسها في فرح طفولي وكأنه يحاول أن يعدها ، وكأنه قد اكتشف في هذه اللحظة لا قبلها انه لا يزال بخير ، وانه نجا حقا من موت محقق !

قال أحد الشهود الواقعة وهو يهم بالسير :

ـ الدنيا لا تزال بخير !

قال شاهد آخر بضجر :

ـ كيف تكون بخير ومثل هذا العجوز يحتاج فيها لمثل هذا العمل ؟

ـ يا جماعة انتم تهربون من مسؤوليتكم ! كيف يحمل هذا الرجل برتقاله وقد تحطم قفصه ؟ وكيف يواصل طريقه ؟

ـ والله فرصة ! هل تبيعه يا رجل أم انك تحمله الى أحد ؟

قالها أحد الشهود وقد تقدم يتفحص البرتقال ويتأكد من سلامته .

ـ كما ترى يا سيدي ، لا يزال طازجا ، جمعته بيدي هاتين من على شجرة ، وابيعه قرب محطة الباص، لكنكم أولى به . خذوه بأقل من سعر السوق قرشا !

قالها العجوز وهو يسترد روح التاجر .

في لحظة تحول الشهود الى مشترين وتتابعت تعليقاتهم :

ـ كيف تبيعنا يا رجل وليس معك ميزان ولا اكياس ؟

ـ ناخذه بسعر الجملة ثم نقسمه بيننا !

ـ مع ان فيه تالفا كثيرا ، فلناخذه بسعر السوق اكراما للعجوز !

ازداد تجمع المارة حولنا ... حول كومة البرتقال. تحولت صحف الصباح التي كان يتقي بها المارة وهج الشمس الى قراطيس تمتلىء بحبات البرتقال ، تحولت كومة البرتقال الى حفنة قروش في حجر العجوز أخذ يعدها غير مصدق !

ربما كانت هذه أجمل صفقة في حياته مع انه كاد يدفع حياته ثمنا لها ، وبهذه النهاية كان الجميع ـ ربما لاول مرة ـ في ذلك اليوم يحصلون على الجائزة ! كل على الجائزة التي يستحقها .

القاهرة